الحوت والمدينة

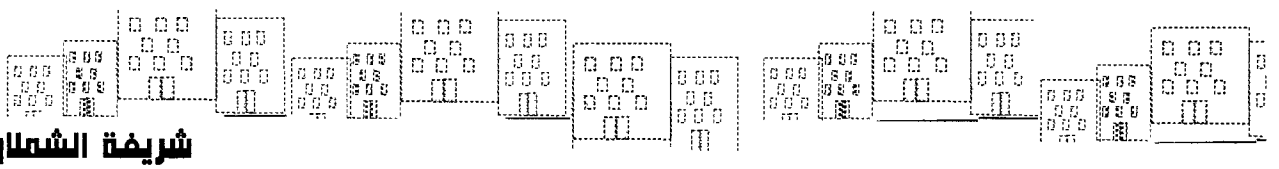

شريفة الشملان

حوت أسود.. ظَهَرَ في الأفق.. كبير لا تستطيع عيني أن تحيط به.. مقدمته كنتُ أراها.. أكثر شيء أراه بوضوح هو فمه.. كان فاغره.. وأميِّز أسنانه الكبيرة المنشارية.

يقترب حثيثاً باتجاهي..

تفصَّدَ العرقُ متصبّباً من كلّ أنحاء جسدي.. فَزَزْتُ من غرقةِ النوم، ورعشاتٌ تملأ جسدي.. شيء يعصر قلبي حتى يكاد يقطعه إرباً. صورة الحوت الأسود تحيط بي من كل جانب، وكذلك سباحته العجلى تجاه الشاطئ.. حافيةً كنت، الرمل كان ساخناً إلى حدّ الكيّ، تألّمتْ قدماي في البداية، ثم تحجَّرتا حتى أصبحتُ أجرُّهُما جرّاً..

من الجهة الغربية ظهر، هائلاً، ضخماً، أسودَ.. حجب أشعة الشمس رغم أنّها كانت في كبد السماء.. المؤذن كان يستعدّ لإطلاق نداء الظهر.. نادى «الله أكبر» الأولى ثم شهق وصمت.. والظلام يغطّي كل شيء.. فززتُ، أكاد أغرق بعرقي.. «بسم الله الرحمن الرحيم، اللّهم ربّ الدنيا وما فيها..».

حدَّثْتُ زوجي وسط رجفات رعبي.. مسح جبيني، أَحْضَرَ ماءً وَقَطَرَ عليه قطرات ماء ورد وزعفران.. أسقاني إياه وهو يتلو آية الكرسيّ.. ونصحني بالامتناع عن رؤية نشرات الأخبار..

في الليلة التالية شاهدته يقترب..

في الليلة ما بعد التالية رأيته يزداد اقتراباً حتى ليكاد يحاذي الشاطئ.

قررتُ أن لا أنام.. أصبحتُ أخشى إغماضة عيني.. قرأتُ سُوَرَ الكهف وآل عمران، وياسين، والمعوذات. شربتُ قهوةً مُرّةً، صببتُ الماء البارد على رأسي.. هرباً من وَسنٍ يطبق عليّ.. ولكنه سلطان كما قالت أمّي ذات يوم. وجدتني أنام.. وهو يزداد اقتراباً.. وأنا أزعق بأعلى صوتي: «أنه حوت لا يرحم الناس.. قادم سيبتلعنا جميعاً كباراً وصغاراً..». لم يسمع أحد صوتي حتى تقطّعت كل حبالي الصوتيّة.

ومع من ابتلعه الحوتُ كنت.. مع المساجد والشوارع والأسواق.. وكل بيوتنا شرقيّها وغربيِّها بشمالها وجنوبها.. أحسستني ببطنه، ورائحةُ قيءٍ فظيعة تحيط بي.. قلت لنفسي، هذه بداية عصارات معدته، لا بد أن ننتظر الطحن..

عجب كبير يفجعني، الجميع يمارس حياته بعادية تماماً يبيعون ويشترون ويتزاوجون. الذي أثار غرابتي، أنني لم أصحُ، ولم يحاول زوجي إيقاظي، بل لحق بي وسط بطن الحوت.

تأقلمنا معه جميعاً.. أصبحتُ أمشّط شعرَ ابنتي وأذاكر لها القصائدَ.. أذهب لعملي.. لم يعد زوجي يغلق التلفازَ عن نشرات الأخبار.. ولكنّي فعلاً لم أستيقظ من نومي.. لم يوقظني أحد.. بل لم يصحُ أحد كي يوقظني.. ورائحة القيء أعتادُها، أعتادها!